

الصوت اللغوي ومكامن بلاغته في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في آيات كريمات

Linguistic sound and its sources of eloquence in the Holy Quran: An applied study in the verses of the Holy Quran

1 دريم نورالدين *

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، (الجزائر)

n.drim@univ-chlef.dz

تاريخ الارسال 2024-11-30 تاريخ القبول 2024-12-30 تاريخ النشر 2024-12-31

ملخص:

نزل القرآن الكريم بعربية في أعلى مراتب الفصاحة لها، وقد شكّل نظمه المعجز وأساليبه البليغة، الدافع الأساس لأوسع حركة لغوية بدأها العرب منذ نزوله إلى يوم الناس هذا، فأكّبت علماء العربية على كشف أشكال صياغة مفرداته، وطرائق بناء تراكيبه، ومعرفة مراتب الألفاظ في الكلام، ومنازل الحروف؛ سعياً لإدراك معانيه وفهم مضامينه، لبيان وجوه إعجازه المختلفة، ومنها بلاغة أصواته المشكّلة للمفردة القرآنية.

نحاول في هذه الدراسة التطبيقية لبعض آي القرآن الكريم، الكشف عن أثر الصوت في بلاغة المفردة القرآنية ومنه في التراكيب القرآنية. من خلال الإجابة عن التساؤل الآتي: كيف تتألف الحروف في المفردة القرآنية لتجعل منها بليغة؟ الكلمات المفتاحية: العربية، الدراسة، لغوية.

Abstract:

The Holy Quran was revealed in Arabic at the highest levels of eloquence, and its miraculous system and eloquent styles formed the main motive for the broadest linguistic movement that the Arabs have started since its revelation until this day. Arabic scholars have devoted themselves to discovering the forms of formulating its vocabulary, the methods of constructing its structures, and knowing the ranks of words in speech, and the positions of letters; in an effort to comprehend its meanings and understand its contents, to clarify the various aspects of its miraculousness, including the eloquence of its sounds that form the Quranic word. In this applied study of some verses of the Holy Quran, we attempt to uncover the effect of sound on the eloquence of the Quranic word and from there on the Quranic structures. By answering the following question: How do the letters in the Quranic word come together to make it eloquent?

Keywords: Arabic, study, linguistics.

الصوت اللغوي ومكامن بلاغته في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في آيات كريمات

1. مقدمة:

الحمد لله ذو الفضل المتان، الذي علّم الإنسان البيان، والصلاة والسلام على أفصح خلقه محمد المصطفى، وعلى آله وصحبه، الذين حملوا القرآن وبلغوا الأنام وبعد :

إنّ القرآن الكريم، كتاب عربيّ المباني، إلهي المعاني، وصلته بالله تعالى أنّه من كلامه، وإلى خاتم رسله وأنبيائه أوحاه، كتاب معجز لأهل العربيّة الفصحاء بما امتاز أسلوبه و معانيه من دقّة تعبير وحسن نظم وبيان، كتاب أعجز البلغاء والفصحاء في زمنهم؛ فعجزوا على الإتيان ولو بآية من مثله، فبدأ قصور الإنسان إزاء سلطان القرآن، والحقيقة أنّ ميادين الإعجاز في النص القرآني مترامية الأبعاد لا يحدها زمان ولا مكان، كما أنّ مادتها لا تنفذ.

لقد كان لنزول القرآن الكريم بآياته المحكمات ولغته الفصيحة ونظمه المعجز وأساليبه البليغة، الدافع الأول لبدء تلك الحركة اللغوية الواسعة، إذ طفق بعض علماء العربيّة إلى تدبّر هذا النظم المعجز، والكشف عن أشكال صياغة مفرداته، وطرائق بناء تراكيبه، ومعرفة مراتب الألفاظ في الكلام، ومنازل الحروف؛ سعياً لإدراك معانيه وفهم مضامينه.

تعددت صور الإعجاز في القرآن الكريم، فكانت البلاغة بجميع صورها إحداها، وقد أشار علماء البلاغة إلى بلاغة أصواته المشكّلة للمفردة القرآنية، انطلاقاً من الظواهر البلاغية التي اشتمل عليها القرآن، والتي أحدثت توازناً صوتياً في الأساليب.

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى بيان نوع من البلاغة وهو البلاغة الصوتية في آي القرآن الكريم، وذلك بدراسة تطبيقية في بعض الآيات البيّنات، لإبراز أثر الصوت في بلاغة المفردة القرآنية ومنه في التراكيب القرآنية. وانطلقنا في دراستنا من إشكالية مفادها، كيف تتألف الحروف في المفردة القرآنية لتجعل منها بليغة؟ وكيف يؤثر ذلك في السياق العام للآيات القرآنية؟.

2. مكانة الصوت ضمن النظام اللغوي وأثره في الدلالة:

تتجلى أهمية الصوت اللغوي، في كونه أصغر وحدة تدخل في تركيب المفردة، التي تدخل بدورها في تشكيل التراكيب، مما ينشأ عنها دلالات متنوعة ومختلفة، انطلاقاً من الأصوات التي تتشكّل منها مفردات اللغة، واللغة على حدّ تعبير ابن جني (ت 329 هـ): "أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"¹، ولكنّها ليست أصواتاً مفردة بل "أصوات مُركّبة دالّة"²؛ لأنّ الصوت المفرد مُبهم لا يؤدي وظيفة إبلاغية إلّا بائتلافه مع أصوات أُخر، وتكوين مجموعات صوتيّة دالّة، هي الكلمات التي ينشأ منها الكلام، وتنسجم في سياقات متنوعة، تبعاً للموقف أو المقام.

شغلت الأصوات اللغوية وطريقة ائتلافها في التراكيب انطلاقاً من تراصفها في المفردة الواحدة، أذهان الفلاسفة وعلماء اللغة، بداية بمناطق اليونان الأوائل الذين سُجّروا بالنظام الصوتي العجيب، الذي يتحدّث به

الإنسان " وبدا من سحر الألفاظ في أذهان بعضهم وسيطرتها على تفكيرهم أن ربطَ بينها وبين مدلولاتها ربطاً وثيقاً وجعلها سبباً طبيعياً للفهم والإدراك، فلا تؤدّي الألفاظ إلّا بها، ولا تخطر الصورة في الذهن إلا حين النطق بلفظ معيّن³. ومن هذا التصور للأصوات اللغوية نجد أن كثيرا من الباحثين والدارسين أصرّ على وجود صلة طبيعية بين اللفظ ومدلوله.

ومنهم من ربط الدلالة بين أصوات اللفظ ومعناه بنشأة اللغة، فأدلوها بجملة افتراضات لا تستند إلى أدلة علمية، ولا إلى الواقع اللغوي، بل مجرد تخمينات، فقد افترضوا أن هذه الصلة كانت واضحة في بدء نشأة اللغة، ولكنّ " تطوّر الألفاظ وتغيّر دلالتها أدّى إلى صُعوبة إيجاد مثل هذه الصلة على نحو دائم بين الألفاظ ومعانيها"⁴. أمّا عن مصطلح "الدلالة الصوتية"، فهو من التسميات الحديثة التي ابتدعها اللغويون في مجال الدراسات اللغوية في العصر الحديث، ولا سيما تلك الخاصّة بالربط بين الأصوات ودلالاتها، و"تستمدّ هذه الدلالة من طبيعة الأصوات نغمها وجرسها"⁵، ومع حداثة هذا المصطلح ومفهومه، فإنّ اللغويين القدامى لم يغفلوا الحديث عنه، فهذا ابن جني (ت 392 هـ) الذي تميّز عن غيره في بحوثه الصوتية الدلالية التي وضعها تحت عنوان (الدلالة اللفظية)⁶. فكانت آراؤه ومباحثه الصوتية من أنفع ما قدّم في المجال الصوتي الدلالي. وقد اتخذ لديه مسارين⁷:

أحدهما: صوتيّ مطرد معتمد على استبدال مواقع الفونيمات، مسببا تغييراً في معاني الألفاظ. فعلى سبيل المثال: إنّ الاستبدال الحاصل بين (الذال) و(الراء) في لفظتي (نفذ) و(نفر) أدّى إلى تغيير في معنى اللفظتين بصورة آليّة. ويعتمد أيضاً على الملامح الصوتية التي تؤدي وظيفة دلالية كالنبر والتنغيم.

والآخر: صوتيّ غير مطرّد، وهو غامض؛ لأنّه لا يخضع لنظام معيّن أو قواعد ثابتة، فهو قائم على تصوّر وافتراض أنّ لكل صوت دلالة طبيعية على معنى معيّن، فما إن يتمّ النطق بهذا الصوت يقفز معناه إلى الذهن مباشرة.

عُني علمائنا العرب الأوائل عناية واضحة بالدلالة الصوتية، فلم يغب عن أذهانهم وجود صلة بين الألفاظ ومعانيها أو بين الدالّ والمدلول، وأقدمهم في ذلك هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) الذي صرّح بهذه الصلة في شرحه لطائفة من الألفاظ العربية، ومن ذلك قوله في لفظة الصوّقير بأثما: "حكاية صوت طائر يُصوّقِر في صياحه، تسمع نحو هذه النغمة في صوته"⁸، وقال في لفظي صرّ وصرصر، "صرّ الجندب صريراً، وصرصر الأخطب صرصره، وصرّ الباب يصرّ، وكلّ صوت شبه ذلك فهو صرير إذا امتدّ، فإذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة الصوت ضوعف كقولك: صرصر الأخطب صرصره"⁹، ولكنّه لم يربط الدلالة الصوتية بنشأة اللغة، لأنّه لم يكن معنياً بذلك، وإنّما هي لفتات الحسّ الموسيقي الموهّف الذي انماز به الخليل بن أحمد الفراهيدي، تلك اللفات التي كانت لها قيمة لغوية عالية؛ لأنها تتمثّل اللبنة الأولى التي بنى عليها من تلاه القول بالدلالة الصوتية للألفاظ. ومن العرب الذين أشاروا إلى هذه الدلالة أيضاً عبّاد بن سليمان الصيمري، وهو من معتزلة البصرة. فقد نقل عنه أهل أصول الفقه¹⁰ إدراكه لوجود صلة طبيعية بين الدالّ والمدلول، إذ ذهب إلى أنّ الألفاظ تدلّ على

معانيها بذواتها، وأنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ذلك اللفظ بعينه، وقال: " وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمّى المعين ترجيحاً من غير مرجح، وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسئل ما مسمّى أذغاغ، وهو بالفارسية الحجر، فقال: أجد فيه يَبَساً شديداً، وأراه الحجر"¹¹، فهو يرى أن اللغة نشأت قائمة على أساس هذه الصفة الطبيعية.

وقد تبجّى هذا المفهوم بعده ابن جني في بدايات كتابه القيم (الخصائص) عند كلامه في نشأة اللغة، ثم توسّع في الكشف عن هذه الدلالة وعقد أكثر من فصلٍ لبيان الصلة الطبيعية بين الألفاظ وما تدلّ عليه¹²، ولم يقتصر على التناسب الطبيعي، وإنما تعدّاه إلى ما هو أشمل من ذلك، إلى الكشف عن التوافق بين جرس الألفاظ ودلالاتها فيما لا صلة له بالمناسبة الطبيعية التي في الكون، فقال: " فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجرام حروفه أصوات الأفعال التي عبّر عنها "¹³ وضرب لذلك مثلاً فقال: " ألا تراهم قالوا: قضّم في اليابس، وخضّم في الرطب، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف "¹⁴.

ولم تكن الدراسة الصوتية لدى القدماء علماً قائماً بذاته كما هو الحال في علمي النحو و الصرف ، فقد قلّت مؤلفاتهم المنفردة فيها ، غير أنّ هذه الدراسة استقلّت بنفسها، وصارت علماً منفرداً من علوم اللغة في العصر الحديث نتيجة التطور العلمي الذي هيأ للدارس أجهزة دقيقة ومتقدمة ساعدته على كشف أسرار الصوت ومخارجه وصفاته، ونتج عن ذلك العديد من النظريات، مثل نظريتي: المقطع والفونيم، كما تولّدت جملة من قوانين التعامل الصوتي مثل: المماثلة والمخالفة وجمع كل ذلك تحت إطار علم الأصوات الحديث.

3. البلاغة الصوتية:

ترتبط الأصوات ارتباطاً بالمعاني النفسية، بدءاً بتشكيلها وانتهاءً بنطقها في الجهاز النطقي، فهي التي تحمل المعاني في السياقات المتنوعة والمختلفة للكلام، فمعاني " أصوات الحروف ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف - لا الحرف نفسه - من المعاني النفسية التي يمكن أن تنبض بها موجة اندفاعه من مخرجه من الحلق أو اللهاة أو الحنك أو الشفتين أو الخياشم، وما يتصل بكل هذه من مقومات نعت الحرف المنطوق، وليست المعاني النفسية أو العواطف أو الإحساس هي كل ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف بل هو يستطيع أن يحتمل أيضاً صوراً عقلية معبرة عن الطبيعة وما فيها من المادة"¹⁵.

1.3 مفهوم البلاغة الصوتية: هي " كلّ وسيلة صوتية يتحقق فيها مفهوم البلاغة بمعناها المصطلح عليه عند البلاغيين "¹⁶.

لا يفهم من هذا أنّ للصوت بلاغة، وإنما المقصود هو فاعلية مكونات الصوت (القيم الصوتية) في إضفاء البلاغة على المفردة التي في أصل وضعها مجموعة من الأصوات، والتي تكتسبها داخل التراكيب اللغوية التي تنشأ انطلاقاً من تداخل المستويات اللغوية بداية بالمستوى الصوتي.

فإنّ "كثيراً من الأوصاف التي أطلقت في مجال التأليف البلاغي والتي تعكس إحساساً معيناً بقيمة جمالية في اللفظ والجملة كالحلاوة والطلاوة والجزالة والعدوبة، إنما ترتبط بقيمة صوتية في أداء اللفظ منفرداً، ومن خلال التشكيل المتناغم"¹⁷، وهذا الجاحظ من أبرز من قعدوا للبلاغة العربية، يرى بأنّ للصوت أثراً واضحاً في التأليف، وهو أساس الكلام، سواء كان نثراً أو شعراً، فالصوت كما رآه: "هو آلة اللفظ، وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلا بظهور الصوت"¹⁸.

2.3. مظاهر العناية بالبلاغة الصوتية عند علماء التراث:

* عند الجاحظ (ت255هـ):

يعدّ الجاحظ من البلاغيين الذين أولوا الأصوات اللغوية بدراسات مستفيضة، ويظهر ذلك جلياً في مواضع متفرقة في كتابه البيان والتبيين وكتبه الأخرى، ومن ذلك حديثه عن تآلف الحروف العربية وتنافرهما، وكيفية اجتماعها من عدمه في نسق الكلمة العربية، يقول متحدثاً عن بعض الحروف التي لا تجتمع مع بعض "فأما افتراق الحروف فإنّ الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقدم ولا تأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقدم ولا تأخير"¹⁹.

فقدوة اللفظ من قوة الصوت أي إنّ الصوت يؤثر في اللفظ، فالمعنى القوي لا بدّ له من ألفاظ قوية التي تتألف من مجموعة من الأصوات التي تحمل الصفات القوية، والعكس كذلك، فخذ مثلاً كلمة شجاع، وانظر إلى الصفات التي اشتمل عليها حرفي الجيم والعين (الجهر، الشدة، ...)، فإنّ "قوة اللفظ ترجع إلى قوة الأصوات التي يتكون منها، وأن من المحال وجود لفظ يتمتع بالشدة أو القوة، دون أن يكون مرجع ذلك إلى أصواته وأدائه"²⁰.

* الرمانى (ت384هـ):

أشار الرمانى إلى بلاغة الصوت حين أتى على ذكر سمة التلاؤم في القرآن الكريم، يقول "بعض الناس أشدّ إحساساً بذلك وفطنة له من بعض، كما أنّ بعضهم أشدّ إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من المكسور"²¹.

* ابن جني (ت392هـ):

من اللغويين الذين أبدعوا في ربط العلاقة بين اللفظ وأصواته المكوّنة له، ابن جني في حديثه عن الدلالة اللفظية، وبخاصة عن تلك الألفاظ المستمدة من محاكاة الطبيعة، وقد أفاض الحديث عن ذلك في كتابه القيم الخصائص، وخاصة في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، ومن أقواله في هذا الشأن "لما كانت الأفعال دليل المعاني كزروا أقواها، وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به، وهو تكرير الفعل، كما جعلوا تقطيعه في صرصر دليلاً على تقطيعه في الواقع"²².

* ابن سنان الخفاجي (ت466هـ):

تطرق الخفاجي في مستهل كتابه سرّ الفصاحة، إلى الحديث عن الحروف واهتم بالناحية الصوتية لها، لأنّ الفصاحة والبلاغة في نظره لا تقوم إلّا بالمرور عليها، ومعرفة مخارجها وصفاتها، فالكلام في الأخير لا ينتظم إلّا

بها. وقد ذكر ذلك في حديثه عن شروط فصاحة المفردة، حيث قال لا بد أن تتألف " اللفظة من حروف متباعدة المخارج ²³ .

* ابن الأثير (ت637هـ):

نَبّه ابن الأثير في حديثه عن الأصوات على الوجهة الجمالية لها، ودورها في تميز الكلام الحسن من القبيح انطلاقاً من الأصوات المؤلفة له، يقول " الألفاظ داخلية في حيز الأصوات لأنها مركبة من مخارج الحروف فما استلذه السمع منها فهو الحسن، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح ²⁴ .

4. بلاغة الصوت في القرآن:

يعدّ مصطفى صادق الرافعي، من أهمّ الدارسين المحدثين الذين اهتموا بدراسة الأصوات من وجهتها البلاغية في القرآن الكريم، وذلك في كتابه القيم إعجاز القرآن، يقول " كان العرب يترسلون في منطقتهم كيفما اتفق لهم، لا يراعون أكثر من تكييف الحروف التي هي مادة الصوت، إلى أن يتفق لهم من هذه قطع في كلامهم تجيء بطبيعة الغرض الذي تكون فيه على نمط من النظم الموسيقي إن لم يكن في الغاية، ففي ما عرفوه من هذه الغاية، فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، في جملة ألحان لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها ²⁵ . أي إن للقرآن الكريم نظاماً صوتياً يولّد إيقاعاً لا يماثله أي إيقاع في لغة العرب، على الرغم من وحدة الحروف بين القرآن والكلام العربي.

تفرّد أسلوب القرآن ببلاغة فاقت الحدود، وأعجزت أرباب الفصاحة والبيان، فأول " ما يلاقيك ويسترعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره ²⁶ . فالأذن تلتقط الصوت، ويتغلغل إلى أعماق النفس، فيحدث ذلك الأثر في متلقيه.

و " إن أول شيء أحسّته تلك الأذن العربية في نظم القرآن، هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوّعاً، يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنة توزيعاً، بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى ²⁷ .

5. الدراسة التطبيقية:

نسعى في هذه الدراسة إلى بيان أوجه البلاغة الصوتية، وكيف تتحقق داخل السياق القرآني، في جملة من الآيات التي ستكون محل الدراسة.

*** قال تعالى " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا أَمْتًا ²⁸ .

فالنسف معناه الاقتلاع والإزالة السريعة إلى أعلى في يسر وسهولة، وقد وردت الكلمة بصيغة المصدر، وإذا جئنا إلى الأصوات المكونة لها، فحرف السين صفيري الذي وقع في مقطع مغلق تزداد حدّته " بحيث يصور ما في النسف من حدة وسرعة نحو العلو، والهواء الخارج من مخرج الفاء المهموسة يصور انتشار ذرات الجبال، على

أن حروف الكلمة في مجموعها ضعيفة، بما يشعر بتفاهة ما صارت إليه الجبال الراسيات، على أن تأكيد الفعل بمصدره يؤكد الإزالة والاختلاع التام²⁹، أضف إلى ذلك أن ذلك الأمر في غاية اليسر والسهولة حين كان بيد الله عز وجل.

وانظر معي إلى كلمة "عوج"، قد فرّق أهل اللغة بين العوج والعوج، فقالوا: العوج بالكسر في المعاني. والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين، فاختيار هذا اللفظ دون غيره مع أن المصدر اعوجاج، يدل على بلاغة الصوت القرآني، وهو حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، فالحروف المكونة للعوج والاعوجاج هي العين والجيم والواو مع زيادات في الثاني (المصدر). ف وقعت المناسبة بين الأصوات والمعاني.

*** قال تعالى "وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ"³⁰.

جاء التعبير القرآني في هذه الآية بكلمة يصطرخون بدلا من يصرخون؛ ومعناها كما في التفسير: يَسْتَعِثُّونَ وَيَصْخَرُونَ وَيَصْخَرُونَ بِشِدَّةٍ؛ لأنّ "لفظ يصطرخون يحكي بجرسه صراخا غليظا مختلطا آتيا من نواحي مختلفة، منبعثا من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة"³¹، فهو تصوير لحال أهل جهنم وما يعانونه من الألم الذي تولّد عن تعذيبهم، وعلى الرغم من أن معنى الصراخ والاصطراخ في المعاجم العربية، هو الاستغاثة بصوت مرتفع، إلا أن التعبير جاء بالثانية، لدلالاتها القوية، والمناسبة بين الأصوات المكونة لها والحال التي يعيشها أهل النار يوم القيامة، "فالتعبير بـ (يصطرخون) على الرغم من ثقله (في السمع) للدلالة على أن ما يصدر منهم إنما هي أصوات بشعة منكّرة"³².

*** قال تعالى: "وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ"³³.

في الآية جاء التعبير القرآني بلفظ "كبكوا" وفي موضع آخر "كَبَّت"، في قوله تعالى "فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"³⁴، فعبر في الأولى بكبكوا، ولم يقل كبوا ليدل "اللفظ بجرسه إلى أنهم يكون كبّا عنيفا غليظا، كما يدل تكرار المقطع "كب" إلى تكرار هذا الدفع، كما يدل على الحركة المضطربة وهو يدفعون وكأن بعضهم يدخل في بعض، وحاجة المقام هي التي اقتضت التعبير بكبكوا دون "كبوا"³⁵، ويظهر ذلك إذا ما قورنت بآية النمل، التي جاء فيها التعبير بلفظ "كَبَّت"، فناسب كلّ تعبير سياق كلّ آية من الآيتين.

إذ "تعددت أصناف الكفار وكثر عددهم فشمل الغاوين والذين أضلّوهم ثم جنود إبليس أجمعون، ناسبهم التعبير بـ "كبكوا" ليكون أبلغ في الدلالة على حشرهم جميعا على هذه الصفة القوية العنيفة المناسبة لعتوهم وكثرتهم، وحيث لم يذكر تلك الأصناف في سورة النمل اكتفى بقوله "فكَبَّتْ وجوههم في النار" على أن السياق في سورة النمل يحرص على إبراز إهانتهم بطريقة معينة هي إسناد الكب لأشرف جزء في الإنسان وهو الوجه"³⁶.

*** قال تعالى: "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا"³⁷

تردد صوت الكاف في الآيات الثلاث خمس مرات على الرغم من قصرها، وتردده هذا الحرف قد أشاع "جوا من الكيد تحس به النفس من تردد هذا الصوت في هذا السياق، ولا شك أنّ هذه الدلالة الصوتية مقصودة في النظم القرآني بدليل إسناد الكيد لله سبحانه وتعالى "وأكيد كيدا" مع أنّ سبحانه لا يكيد كيدا حقيقيا ولكن يفسد عليهم كيدهم ويبطل تدبيرهم ويرد وباله عليهم، وقد عبّر عن هذا بالكيد للمشاكلة، ولهذا الاعتبار الصوتي ليشيع من تردد حرف الكاف جو من الكيد الممعن فيه"³⁸.

والكاف مخرجه من أقصى الحنك، وصفته الهمس، وهي تناسب معنى الكيد في السورة إذ الكيد لا يكون إلاّ خفية وفي تستر، والكفر معناه أيضا الستر في اللغة، فناسب حرف الكاف المعنى العام للآية والمعنى الجزئي في كلّ مفرد وهذا من اليلاعة الصوتية بمكان.

*** قوله تعالى: "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا"³⁹.

جاء التعبير في الآية بلفظ مقتدر، ولم يأت بلفظ قادر، مع أنه يشعر بقدرة الله تعالى، ولما كان الموضع موضع تفخيم، كانت لفظة "مقتدر أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على التفخيم للأمر وشدة الأخذ، أو للدلالة على بسط القدرة"⁴⁰.

إذا تأملنا صيغة مقتدر فهي اسم مفعول من الفعل اقتدر، وهي أبلغ من اسم الفاعل قادر، لذا جاء التعبير القرآني بها في سياق الآية، وأما عن الحروف المشكلة لها، وهي الميم والقاف والتاء والdal والراء، فاجتمعت فيها مخارج متباعدة وصفات متضادة، فالقاف والdal والراء مجهورة والتاء مهموس، والdal والقاف والتاء شديدة، وتفردت الراء بالتكرار، فالمعنى القوي يناسبه الحرف القوي، في دلالة بيان قوة الله عزّ وجلّ، وفي شدة الحروف دلالة على قصر زمن الدنيا لأنّ الحرف الشديد يحدث في فترة زمنية أقصر من تلك التي يحدث فيها الرخو، وفي تكرار الراء دلالة على تعاقب المشاهد في بيان حال الدنيا، "هذا المشهد يعرض قصيراً خاطفاً ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال. فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض. والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح. وما بين ثلاث جمل قصار، ينتهي شريط الحياة. ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد. بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء "كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَ: اخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَ: أَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ"⁴¹، فهناك تناسب بين الألفاظ ومعانيها والأصوات التي تشكّلت منها الألفاظ، فشكّلت بلاغة قرآنية في سياقات متنوعة، ليثبت بذلك أنّ للحرف بلاغة تظهر في اللفظ بالتركيب.

6. خاتمة:

- على الرغم من عريّة القرآن فإنّه قد تميّز بكلمات متخيّرة وجملة متوازنة، وتراكيب منسجمة، وأصوات قد تفاعلت مع معانيه فشكّلت بلاغة صوتية، يمكن إضافتها إلى صور إعجازه الأخرى.

- تميّزت المفردة القرآنية بنسيج صوتي خاص، فأعطت تراكيب قرآنية اتسمت ببلاغة فاقت بلاغة الكلام البشري وفصاحته، حيث تتكون الكلمة فيها من حروف ذات صفات معينة تنسجم مع المعنى العام للسياق القرآني الذي ترد فيه.

- تتضافر القيم الصوتية (الجرس، والإيقاع، ...) لتضفي على الأسلوب القرآني صورته الصوتية المؤثرة، بداية من الأصوات المشكّلة للكلمة المفردة وصولاً إلى التراكيب القرآنية في مختلف السياقات القرآنية.

الإحالات:

- ¹ - ابن جني : الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار وآخرين ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان (د ت) ، ج 1 ، ص 33 .
- ² - أرسطو طاليس : الشعر ، ترجمة و تحقيق : شكري عياد ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1967 . ص 114 .
- ³ - أحمد بهجت : الطريق إلى الله ، الزهراء للإعلام العربي ، مصر ، ط 1 ، 1988 ، ص 17 - 18 .
- ⁴ - إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 5 ، 1984 ، ص 62 .
- ⁵ - إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، ص 46 .
- ⁶ - ابن جني : الخصائص ، ج 3 ، ص 100 .
- ⁷ - ينظر : عبد الكريم مجاهد : الدلالة اللغوية عند العرب ، دار الضياء ، 1985 ، ص 166 - 183 .
- ⁸ - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي : العين ، تحقيق : مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي ، دار الرشيد ، بغداد ، 1981 ، (صو قر) ، م 5 ، ص 60 .
- ⁹ - المصدر نفسه ، (صر) ، م 7 ، ص 81 - 82 .
- ¹⁰ - ينظر : أحمد بن يحيى بن المرتضي : طبقات المعتزلة ، تحقيق : سوسنة ديفلد فكريز ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1965 ، ص 77 .
- ¹¹ - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، المزهري في علوم اللغة ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي أحمد البحاي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط 4 ، 1958 ، ج 1 ، ص 47 .
- ¹² - ينظر : ابن جني : الخصائص ، باب (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) ج 2 ، ص 154 - 170 ، و باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) ج 2 ، ص 147 - 154 .
- ¹³ - المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 65 .
- ¹⁴ - المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 65 .
- ¹⁵ - ابن الخطيب ، مجلة المقتطف ، القاهرة ، مارس 1940 ، ص 320 .
- ¹⁶ - محمد إبراهيم شادي ، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1988 ، ص 11 .
- ¹⁷ - محمد إبراهيم شادي ، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم ، ص 09 .
- ¹⁸ - الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق فوزي عطوى ، دار الجيل ، بيروت ، ج 1 ، ص 56 .
- ¹⁹ - الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 51 .
- ²⁰ - عبد الله ربيع ، الملامح الأدائية عند الجاحظ ، ص 155 .

- ²¹ الرماني، النكت، ص95.
- ²² ابن جني، الخصائص، ج1، ص155.
- ²³ ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص45.
- ²⁴ ابن الأثير، المثل السائر، ص90.
- ²⁵ الرافعي، إعجاز القرآن، ص243.
- ²⁶ محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، 2008، ص101.
- ²⁷ محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص103.
- ²⁸ سورة طه، الآيات 105/106/107.
- ²⁹ محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص29.
- ³⁰ سورة فاطر، الآية 37.
- ³¹ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص57.
- ³² محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص31.
- ³³ سورة الشعراء، الآيات 91/92/93/94.
- ³⁴ سورة النمل، الآية 90.
- ³⁵ محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص32.
- ³⁶ نفسه، ص32.
- ³⁷ سورة الطارق، الآيات 15/16/17.
- ³⁸ محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص34.
- ³⁹ سورة الكهف، الآية 45.
- ⁴⁰ ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات، ج2، ص210.
- ⁴¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ص235.

المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم

1. إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 5 ، 1984
2. أحمد بيجت : الطريق إلى الله ، الزهراء للإعلام العربي ، مصر ، ط 1 ، 1988.
3. أحمد بن يحيى بن المرتضى : طبقات المعتزلة ، تحقيق : سوسنة ديفلد فكرز ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1965.
4. أرسطو طاليس : الشعر ، ترجمة و تحقيق : شكري عياد ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1967
5. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوى، دار الجليل، بيروت

-
6. جلال الدين السيوطي ، المزهري في علوم اللغة ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي أحمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط 4 ، 1958 ،
 7. ابن جني : الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار وآخرين ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان (د ت).
 8. الخليل بن أحمد الفراهيدي : العين ، تحقيق : مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي ، دار الرشيد ، بغداد ، 1981 .
 9. عبد الكريم مجاهد : الدلالة اللغوية عند العرب ، دار الضياء ، 1985 .
 10. محمد إبراهيم شادي ، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1988 .
 11. محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الأولى ، 2008 .